ماكس فيبر: الدين وأخلاق العمل والرأسمالية

برّاق زكريا ■

ليس من هـمّ السوسـيولوجيا دراسـةُ جوهر الظاهرة الدينية، ولا مُسـاءلةُ هـذه الديانة أو تلك في مـدى صِحّتها أو زَيْفها، وإنما يتركّز شـأنُ عالِم الاجتماع في رصد السـلوك الذي تُتيحه الظاهرة الدينية؛ كونها تستند إلى بعض التجارب الخاصة وإلى غاياتٍ وتصوُّرات محدّدة، «فالدينُ ظاهرةٌ سوسيولوجية ذاتُ توظيفات شتّى على أصعدة الأيديولوجيات السياسية والاقتصاديـة، وعلى العالِم أن يـدرُس هذه التوظيفاتِ بذاتهـا... فالمطلـوبُ عِلميّاً هـو دَرْسُ مـا يحدث في المجتمع، وتحديدُ نسـبة الحدث الديني وقُوّته، وتبيانُ أثـره وتأثيره»[1]. ومـن هنا، فإنّ مـا كان محلَّ اهتمام

1 ـ يوسـف شـلحت، **نحو نظرية جديدة في علم الاجتماع الديني (الطوطمية ـ اليهودية ـ النصرانية ـ الإسـلام)**؛ تحقيق: خليل =

■ باحث من لبنان.

bookaltafahom 34.indb 135 1/3/12 8:32 AM

ماكـس فيبـر[1] (Max Weber) هو السـلوك المعبِّر للمُتديّـن؛ إذ لا مجال للتأمُّل فـي القيمة الخاصة بالعقائد والنظريات اللاهوتية المتنافسـة أو بالفلسـفات الدينية، كما ليس المقصود اتخاذ الموقـف الوضعي القائم على إنكار الدين أو احتقاره والتقليل من شـأنه، وإنمـا كانت غايةُ فيبر فَهْمَ تأثير السـلوك الديني في بقية النشـاطات الأخلاقيـة والاقتصادية والسياسـية والاجتماعية، وبهذا المعنـى تُصبح سوسـيولوجيا الدين في الوقت نفسِه أبحاثاً متعلّقة بسوسـيولوجيا الاقتصاد أو السياسة، وبخاصةٍ سوسـيولوجيا الأخلاق[2]، يقول فيبر في هذا المعنـى: «لا يُهِمّـنا بالتأكيد ما كان يجري تعليمُه نظريّاً ورسميّاً في كُتب اللاهوت الأخلاقي... [وإنما همُّنا] اكتشافُ الحوافز البسيكولوجية التي تمتدُّ جذورُها إلى المعتقدات والممارسات الدينية التي ترسم للفرد سُلوكه»[3].

= أحمـد خليل، دار الفارابي, بيـروت، لبنـان؛ ط1، 2003؛ ص15. (المقتبس عن تقديم خليل أحمد خليل للكتاب لا عن المؤلّف).

1 ـ وُلد ماكس فيبر في مدينة إيرفـورت بألمانيا فـي 21\4\1864 وتُوفي في 14\6\1920 (أي: عاش سـتة وخمسـين عاماً)، وينحدر من أسـرة تنتمي إلى الطبقة الوسـطى في المجتمع الألماني. وكان والدُه رجلاً ذا نزعةٍ بيروقراطية تَـقلّد مناصبَ سياسيةً مرموقة وخالَط الساسـة المُخضرميـن. أمّا والدتُـه فكانت مُتديّنـةً مُتزمّتةً فـي تديُّنها تعتنق المذهب الكالفيني. حصل فيبر في سنة 1892 على شهادة الدكتوراه في الفلسفة، وكان اهتمامُـه الأكاديمي يتوزّع على الاقتصاد والتاريخ والقانون وعلم الاجتماع. عمِل مدرّسـاً فـي جامعة برلين، ثم أسـتاذاً للاقتصاد في جامعة هايدلبرغ، وفي سـنة 1905 نشـر أشهر مؤلّفاته **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**. لينصرف بعد ذلك إلى دراسة الأديان القديمة، مثل الديانة الصينية والهندية واليهودية والإسلام. وكان منزلُه ملتقى الفلاسـفة والمفكّرين والنقّاد، كما أسـهم في تأسـيس جمعية علماء الاجتماع الألمان. انظر: معن خليل عمر؛ **نظريات معاصرة في علم الاجتماع**؛ دار الشروق للنشر والتوزيع؛ عمّان، الأردن؛ ط1، 2005؛ ص159 ـ 160.

2 ـ جوليان فروند، **سوسـيولوجيا ماكس فيبر**، ترجمـة جورج أبي صالـح، مركز الإنماء القومي، بيروت، ط1، دون تاريخ، ص87.

3 ـ ماكس فيبر، **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**، ترجمة: محمد علي مقلّد، مركز =

bookaltafahom 34.indb 136 1/3/12 8:32 AM

وما ذلك بغريبٍ عن فيبر، سيّما وأنه عُرف عنه تميُّزُه عن زملائه وأقرانِه الكبار (من أمثال تونيز وسومبارت وغيرهما) بنُزوعِه البيّن إلى حصر الظواهر و«نَمْذَجتِها» أو عَقْلَنتِها «في نماذجَ صافيةٍ (Types patterns) لِتسهُل مقاربتُها ودراستُها من ضمن المشروع الكبير لقراءة التاريخ الغربي بطريقةٍ غائيةٍ بوصفِه «محاولاتٍ مستمرّةً ومتعرّجةً في عملية تطوُّرٍ مُعقلَن ـ أو تطوُّر طويل المدى باتجاه العقلنة» ليس بالمعنى التقويمي للظاهرة، بل بمعنى إخضاع الطبيعة والإنسان لمبادئَ عقلانيةٍ وأيديولوجيةٍ واجتماعية واقتصادية، هي [تلك] التي أوصلتْ إلى الرأسمالية»[1].

ولا مِراء في أنّ شُهرة فيبر الطائرة إنما تعود إلى دراسته حول **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**، إحدى أهم الدراسات الدينية التي قدّمها، وفحواها أنّ الأخلاق البروتستانتية ـ الكالفينية بخاصة ـ كانت أحد أهم العناصر التي أسهمت إسهاماً كبيراً في تطوُّر الروح الرأسمالية الحديثة؛ إذ إنّ تلك الأخلاق قد «أنتجت قِيماً ومعاييرَ شجّعتْ العمل الحرّ والتنسُّك والادّخار، وبذلك خَلقتْ مناخاً ذِهنيّاً خاصّاً، ساعد بدوره على تطوُّر «المشروع الاقتصادي الحرّ»، وبالتالي على نُموّ وتطوُّر الرأسمالية في الغرب»[2]. وقد اتّخذ فيبر من دراسته هذه أساساً يدحض به ـ دونما قصدٍ منه ـ نظرية كارل ماركس في أمر غَلَبة العنصر الاقتصادي وسيطرته في توجيه الفكر

= الإنماء القومي، مراجعة: جورج أبي صالح، بيروت، لبنان، دون ذكر رقم الطبعة أو تاريخها، ص67.

1 ـ رضوان السيد، **سياسيات الإسلام المعاصر، مراجعات ومتابعات**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1997، ص338 ـ 339.

2 ـ إبراهيم الحيدري، «جدلية الحوار حول أطروحة ماكس فيبر «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية»، **مجلة العلوم الاجتماعية**، مج18، عدد1، ربيع 1990، ص159.

bookaltafahom 34.indb 137 1/3/12 8:32 AM

الديني والمشـاعر الروحية. فقد كان ماركس ينظر إلى البروتسـتانتية بحسبانها أيديولوجيا الرأسـمالية، ذاهباً إلى أنّ الظاهرة الدينية تُعَـدّ ظِلًّا للظاهرة الاقتصادية، أمّا ماكس فيبر فعكَس القضية، مُقِيماً الحُجّة على أنّ الأخلاق الدينية ـ البروتستانتية الكالفينية خصوصاً ـ هي التي أثّرتْ أيّما تأثير في الاقتصاد، بل في ظاهرةٍ اقتصادية هي قمّةُ ما بلغه التفكير العقلاني الاقتصادي: الرأسمالية الغربية الحديثة[1].

السـؤال المحوري الـذي انطلق منه فيبـر هو: إلى أي مـدًى تؤثّر التصـورات الدينيـة عـن العالـم والوجـود فـي السـلوك الاقتصادي للمجتمعات كافةً؟. فطَفِق يبحثُ جادّاً عن الإجابة على هذا التسـاؤل في تشكيل السلوك الإنساني، مُعارضاً الاتجاهَ المادّي الماركسيَّ الذي يقوم على فكرةٍ جوهرية، مُفادُها أنّ خاصية السلوك الديني ما هي إلّا مجرّدُ وظيفةٍ يحدّدها الموقـع الاجتماعي للطبقة التي تَظهر وسـطها، كما لو كانت هذه الشريحةُ هي الحاملَ المميِّز لهذه الوظيفة، أو أنها لا تُمثّل إلا أيديولوجيتها[2]. لقد انبرى فيبر لتفنيد ما يدّعيه ماركس في نظريّته حول التاريخ من أسـبقية العنصر الاقتصادي، حيث إنـه يذهب إلى أنّ التغيُّرات في العلاقات الاقتصادية بين الأفـراد قد أدّت إلى تغيُّراتٍ في المجالات الأخرى، الاجتماعية والثقافية... إلخ، مُستبعِداً العاملَ الديني من أنْ يكـون ذا أثرٍ فـي التغيُّر الاجتماعـي، وذاهباً إلـى أنّ المِلْكية الفردية خلال التاريخ كلِّه ـ وكذلك العلاقـات الاقتصادية والصراعات الطبَقية الناشئة عن هذه العلاقات ـ كانت هي العاملَ المؤثّر في تطوُّر

1 ـ انظر: براين تيرنر، **علم الاجتماع والإسـلام، دراسة نقدية لفكر ماكس فيبر**، ترجمة أبي بكر باقادر، دار القلم، بيروت، ط1، 1987، ص25.

2 ـ انظر: كاتريـن كوليو تيلين، **ماكس فيبـر والتاريخ**، ترجمة: جورج كتورة، المؤسسـة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص34 ـ 35.

bookaltafahom 34.indb 138 1/3/12 8:32 AM

الجنس البشـري. يقول ماكس فيبر في نصٍّ له بعنـوان «نقد الاقتصاد الماركسـي»: «إنّ ما يُعـرف بـ«التصـوُّر المادّي للتاريـخ» ـ في معناه القديم البدائـي والعبقري كما ورد في «البيان الشـيوعي» ـ لا يُمارِسُ في أيّامنا أيّ ضغطٍ إلّا على بعض الجَهلة والهُواة»[1].

السؤال المحوري الذي انطلق منه فيبر هو: إلى أي مدًى تؤثّر التصورات الدينية عن العالم والوجود في السلوك الاقتصادي للمجتمعات كافة؟

ولمّـا كانـت الرأسـمالية قـد أصبحت هـي القوةَ الأكثـر تأثيراً وحسـماً في تحديد مصير الحياة الحديثة؛ فقـد كان لا بدّ برأيه من دراسـة الإيمان والمعتقدات مـن الزاوية الخاصـة المرتبطـة بفعاليّتهـا الاقتصادية. وبعد البحث والاسـتطلاع لاحظ فيبر أنّ ثمة ارتباطـاً جليّاً بين نشـأة الرأسـمالية وظهور البروتسـتانتية في المناطق الهامّة من أوروبا الغربية. وكان مَرامُه من وراء ذلك تأكيد قضيّتين أساسيّتين:

ـ **أُولاهُما:** أنّ سـلوك الأفراد في مختلـف المجتمعات لا يمكن فهمُه إلّا في سياق تصوُّرهم العام للوجود، ولا شك في أنّ المعتقداتِ الدينيةَ وتفسـيراتِها هي إحدى التصوُّرات للعالم، وهي تؤثّر في سـلوك الأفراد والجماعات بما في ذلك السلوك الاقتصادي.

ـ **وثانيتُهمـا:** أنّ التصـوُّرات الدينية هـي بالفعل إحـدى مُحدِّدات السلوك الاقتصادي، كما تُعدّ من بين أسباب تغيُّر أنماط هذا السلوك[2].

1 ـ عن: كاترين كوليو تيليـن، **ماكس فيبر والتاريخ**، (في صفحات الكتاب الأخيرة نصوص لماكس فيبر)، ص 116.

2 ـ انظر: المصدر السـابق نفسـه، ص 73، ومحمد علي محمـد، **المفكرون الاجتماعيون، قراءة معاصرة لأعمال خمسـة من أعلام علم الاجتماع الغربي**، دار النهضة العربية، بيروت، 1983، دون رقم الطبعة، ص 236 ـ 237.

bookaltafahom 34.indb 139 1/3/12 8:32 AM

وقد تبيّن له أنّ ثمة تطابُقاً أو تناسُباً بين العقلية البروتستانتية في إنجلترا والولايات المتحدة وغيرهما ـ ولا سيما لدى المتزمّتين البروتستانت المعروفين بـ«البيوريتان» (Puritans) ـ وبين الاتجاه العام نحو الحياة، ذلك الاتجاه الذي يحضّ على العمل بنشاطٍ وحيوية. فالبروتستانتية حسب فيبر ـ في شِقِّها الكالفيني بخاصة ـ هي مجموعةٌ من الحوافز التي تدفع الإنسان إلى العمل والإنتاج، وتحصيل الثروة والإسهام في زيادة ازدهار الحياة الاقتصادية، بل إنها تمنح المهنةَ قيمةً أخلاقية كبرى وتُقدّس العمل إلى درجة أنها ترى في تأدية العمل ـ بأمانةٍ وحيويةٍ وحماسةٍ ـ واجباً مقدّساً، «فمبدأ **العادة** (Habitus) لدى بنيامين فرانكلين ليس معناه حُبّ المال، أو حُبّ الكسب، أو حُبّ **الحياة الثرية**؛ بل هو «صيغةٌ مبدئية أخلاقية لطرائق العيش المُثلى». وهذا المبدأ الكالفيني لا يرى في العمل وسيلةً للكسب من أجل العيش، بل إنّ العمل ذاته هو فلسفةُ الحياة ومعناها، أو أنه هو الذي يُسوّغ نفسه»[1].

كما بدا لفيبر في أثناء عُكوفِه على دراسة البروتستانتية ـ وخصوصاً كتابات البيوريتانيين ـ أنّ الكالفينية بصورةٍ خاصة تُشدّد على الطابع الفردي للخلاص، وانتهى من ذلك كلِّه إلى أنّ الروح التي تميل إلى الحصول على الكسب المادّي بطريقةٍ رشيدة منظّمة ـ وهي روح الرأسمالية ـ ثمرةٌ غير مقصودة من ثمار الكالفينية[2].

1 ـ رضوان السيد، **سياسيات الإسلام المعاصر**، ص 341.

2 ـ لأنه لا يمكن بأي شكلٍ من الأشكال ـ كما يؤكد فيبر ـ أن تُنسَب الروحُ الرأسمالية إلى مارتن لوثر، فقد كان مُعادياً لهذه النزعة «الفرانكلينية» ولكل من يُمثّلها، لقد «فشل لوثر فشلاً ذريعاً في إقامة صلةٍ... تقوم على مبادئَ أساسيةٍ بين المَشاغل الوظيفية والمبادئ الدينية». ماكس فيبر، **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**، ص 55، بل إن الكالفينية تُمثّل سبب إرعابٍ للكاثوليكيين واللوثريين معاً، وذلك بداعٍ من خصوصياتها الأخلاقية، وبخاصةٍ من حيث إنّ العلاقات التي تُقيمها بين الحياة =

bookaltafahom 34.indb 140 1/3/12 8:32 AM

لقد برهن فيبر في **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية** على أنّ الرأسمالية ـ من حيث كونُها أهمَّ ظاهرةٍ اقتصادية حديثة ـ هي من نتاج الروح الديني البروتستانتي بأخلاقه وقِيمه ومعتقداته، وخصوصاً لدى أتباع الكالفينية؛ إذ إنّ هذه الطائفة البروتستانتية تعمل على تشجيع الادّخار والاستثمار، بل إنّ أتباعها يُقدّسون العمل ويحترمون أرباب المهن، بالإضافة إلى فرضِها الواجباتِ والقواعدَ التي تُنظّم السلوك الاقتصادي، ونبذِها الخمولَ والتكاسلَ والتواكلَ، وتحذيرِها أتباعَها ضَعفَ الهِمّة وخَوَرَ العزيمة، وتنفيرِها إياهم من الركود والرُّقود والقعود، وحثِّها على الحركة والنشاط من أجل العمل والكسب، باعتبار العمل سبيلاً لتحقيق الخلاص الفردي[1]. ولا أدلَّ على ذلك ـ كما لاحظ فيبر ـ من أنّ المناطق التي تسُود فيها البروتستانتية ـ الأراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا في أيامنا هذه) وإنكلترا وغيرها... ـ هي أهمُّ الدول الصناعية التي تطوّرت فيها الرأسمالية، على حين أنّ المناطق التي تعتنق الكاثوليكيةَ بغالبيتها العُظمى هي الأقلُّ تطوُّراً من الناحية الصناعية والاقتصادية.

= الدينية والنشاط الدنيوي تختلف اختلافاً بيّناً عن تلك المعروفة في الكاثوليكية أو في اللوثرية. انظر لمزيدٍ من التفصيل في أخلاق الشغل عند لوثر: فيبر، **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**، ص50 ـ 60، على أنه ينبغي الإشارة إلى أنّ فيبر لا يقصد بالكالفينية آراء كالفن الشخصية، وإنما الكالفينية في شكلها الذي كانت عليه في فترة نهاية القرن السادسَ عشرَ وفي خلال القرن السابعَ عشر، «ومن نافل القول أنّ اللوثري ليس أبداً مُرادفاً للكالفيني»، فيبر، **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**، ص99.

1 ـ انظر: ماكس فيبر، **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**، ص50، وزيدان عبدالباقي، **علم الاجتماع الديني**، دار غريب للطباعة، القاهرة، دون رقم الطبعة وتاريخها، ص95 ـ 110، ونبيل السمالوطي، **الدين والبناء الاجتماعي**، دار الشروق، جدّة، السعودية، ط1، 1981، ج2، ص125 ـ 129 و145 ـ 151.

bookaltafahom 34.indb 141 1/3/12 8:32 AM

وبعبقريّةٍ فريدة، تنبّه ماكس فيبر للاعتراض الذي قد يُوجَّه إلى أطروحته، ومؤدّاه التفسيرُ العكسي لها القائل: لماذا لا نعكس القضية، فنفترض أنّ الازدهار الاقتصادي ـ الذي تتميّز به هولندا وإنجلترا وغيرُهما ـ من الدول الصناعية كان سبب اعتناق أبناء هذه البلاد العقيدة البروتستانتية؛ إذ بدا لهم أنّ مثل هذا المذهب (= البروتستانتية الكالفينية بخاصة) مُلائم لهم ولمكانتِهم الاقتصادية بل ومُبارِكٌ لأخلاقياتهم ورُوحهم في العمل، لا أنّ الروح البروتستانتيةَ وأخلاقياتِها العملية هي التي جعلتهم أغنياء؟.

وجواب فيبر على هذا الافتراض العكسي أنه خاطئ بل متهافتٌ من أساسه، ويُدلّل لذلك بأنّ هناك عدداً من الفقراء الذين اعتنقوا البروتستانتية في روما وفرنسا وإنجلترا، وذاعت الآن شهرتُهم نظراً لارتفاع حالتهم الاقتصادية، وما قدّموه من نشاط صناعي ملحوظ، ودورِهم الرائد في مجال الأنشطة الاقتصادية[1].

ولا يوافق صاحبُ **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية** على الطرح الذي يذهب إلى أنّ تدفُّق المعادن كان باعث الرأسمالية، كما يعترض على القول: إن النموّ السكّاني في القرن الثامنَ عشرَ كان السبب المُوجِب لهذا الاقتصاد؛ إذ إنّ النمُو السكّاني المماثل في الصين ـ مثلاً ـ في الحِقبة ذاتِها أعاق الرأسمالية بدلاً من تشجيعها، كما يُلمع فيبر. بَيْدَ أنّه لا يرى أنّ هناك سبباً واحداً فقط للرأسمالية، فهناك عدّة أسباب وعوامل تضافرت في هذا الشأن، وعلى التحليل الذي يتوخّى الكمال ما أمكن إلى ذلك سبيلاً ألّا يُهمل الوضع الاقتصادي للمدن الإيطالية منذ عصر النهضة. ولا نِزاع في أنّ تشعُّب

1 ـ محمد علي محمد، **المُفكرون الاجتماعيون**، ص 240 ـ 241.

bookaltafahom 34.indb 142 1/3/12 8:32 AM

أسباب الرأسمالية وتعدُّد العناصر التي ما زالت تتدخّل في مجرى تطوُّرها التاريخي يُبيّنانِ أنه ليس هناك رأسمالية واحدة. لهذا السبب ومن أجل إكساب هذا التصوُّر الاقتصادي الواسع وحدةً شكليةً على الأقل ـ وإنْ اختلف باختلاف البلدان والعصور ـ يُفضّل فيبر الكلام على «روح» الرأسمالية[1].

فما المقصود بالرأسمالية، وما هي الدعائم والقواعد التي تقوم عليها؟

تقوم المسلّمةُ الأعمُّ للرأسمالية الحديثة على جعل الحساب «العقلاني» قاعدةَ جميع مؤسّسات الإنتاج الكبرى التي تُعنى بتغطية الحاجيات اليومية، وتفترض هذه العقلانيةُ بدَورِها:

1 ـ **امتلاك جميع الوسائل المادّية:** (أراضٍ، أجهزة، آلات، معدّات...) كمِلكيةٍ مطلقة لمؤسّسات خاصة مستقلّة.

2 ـ **حُرّية السوق:** التي حلّت محلّ التقييد اللاعقلاني للتجارة.

3 ـ **تِقْنية عقلانية:** تُتيح التوقُّعَ والمَكْنَنة الكبيرة في آنٍ معاً، سواءٌ في ميدان الإنتاج أم في ميدان تداوُل السلع.

4 ـ **حُرّية العمل:** بمعنى أنّ الأفراد الذين يبيعون طاقاتِهم لا يفعلون ذلك بدافع الواجب القانوني وحسب، وإنما لأسبابٍ اقتصادية كذلك.

5 ـ **تسويق الاقتصاد:** بإتاحة الفرصة لمن يرغب في المشاركة بالمؤسّسة كمساهم.

1 ـ جوليان فروند، **سوسيولوجيا ماكس فيبر**، ص 86 ـ 87.

bookaltafahom 34.indb 143 1/3/12 8:32 AM

على أنه لا مِـراء برأي فيبر في أنّ الرأسـمالية في الاقتصاد كانت نتيجة العَـقْـلَنة المُتزايدة للحضارة الغربية منذ العهد اليوناني[1].

وتظهـر الروح الرأسـمالية بجلاءٍ فـي موعظة بنيامين فرانكلين، الكاتب الأميركي ذي النزعة الرأسـمالية الحادّة والمُتغالية، بل لَكأني بها تنطِق على لسـانه، فهـو تَرجُمانُها؛ إذ يقول: «تَذكّـرْ أنّ الوقت هو المال... تذكّر أنّ الائتمان هو المـال، [وإذا] ما ترك أحدُهم مالَهُ بين يدي بعـد انتهاء أجلِـه فإنه يكون قد قـدّم لي فائدةَ المبلـغ أو كلَّ ما يمكن أن أسـتفيده مـن ماله خلال هـذا الوقت... تذكّـرْ أنّ المال هو بطبيعته مُولِّدٌ وكثير الإنتـاج. المالُ يولّد المال، و«أولادُه» يمكن أن تَلِد أكثر، وهكذا دَوالَيك... [إنّ الذي] يقتل خِنزيـرةً فهو يقتل ذُرّيتها حتى الجيل الألف، والذي يغتال قطعةً من النقود من خمسـة شـلنات يقضي على كل ما يمكنهـا أن تُنتجه: أكـوامٌ من الليرات الاسـترلينية!... مَن يخسر خمسة شلنات لا يخسـر هذا المبلغ فحسب، بل أيضاً كلَّ ما كان يمكن أن يربحه إذا اسـتخدم المبلغ في المشـاريع»[2]. وفي هذا المعنى يقول باكستر (Baxter) أحد كبار مُنظّري الفكر الطُّهري: «اِحفظْ للوقت اعتباره، وكُنْ حذِراً كي لا تخسرَ شيئاً من وقتك كل يوم، وبهذا لا تخسر شيئاً من ذهبك وفِضّـتك»[3].

وقد تَحدّد الشـكل الحديـث للرأسـمالية الغربية ـ حسـب فيبر ـ بتطوُّر الإمكانـات التقنية، كما ترتبط عقلانيتُه بإمـكان تقدير العوامل التقنية الأكثر أهمّية. وكأنه يصبُو من وراء ذلك إلى أنْ يُقيم علاقةً بين

1 ـ جوليـان فرونـد، المصـدر نفسـه، ص85 ـ 86، ومحمـد علـي محمـد، **المفكرون الاجتماعيون**، ص237 ـ 239.

2 ـ عن: ماكس فيبر، **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**، ص26 ـ 28.

3 ـ عن: فيبر، المصدر نفسه، ص152.

bookaltafahom 34.indb 144 1/3/12 8:32 AM

الرأسمالية الغربية الحديثة وبين العلم الحديث، لا سيّما بعلوم الطبيعة القائمة على أســاس الرياضيات والتجربة العقلانية. وليس مقصودُه من ذلك أنْ يصــل إلى القول: إنّ المصالح الرأســمالية هي التي أدّت إلى ولادة الرياضيات أو علم الميكانيكا، وإنما غايــةُ مَرامِه الإلماعُ إلى أنّ استخدام المعرفة العلمية استخداماً تِقْـنيّاً قد تلقّى في الغرب دَفْعاً إلى الأمام ودعماً ملحوظاً بفعل الإيجابيات والمنافع الاقتصادية التي وفّرها، مع الأخــذ بعين الاعتبــار أنّ هذه المنافــع المهمّة علــى صعيد ظروف السكّان المعيشية إنما هي متأتّيةٌ من البِنية الاجتماعية الخاصة بالغرب.

اِحفظْ للوقت اعتباره، وكُنْ حذِراً كي لا تخسرَ شيئاً من وقتك كل يوم، وبهذا لا تخسر شيئاً من ذهبك وفِضّتك

لكن، ما هي السماتُ الأساسية للعقلانية الغربية التي جعلَتْها تفضُل غيرَها من أشــكال العقلانيــات التــي يُســلّم فيبــر بوجودها في الدهور الخالية لدى حضــاراتٍ وبلدان أخرى (الهند، الصين، بابل... إلخ) فالعقلنةُ الغربية ـ بنظره ـ هي عقلنــةٌ نوعية خاصةٌ بالحضارة الغربيــة؟ لا بدّ بحســب فيبــر من التســليم بأهمّية الاقتصاد الأساســية في هذا المضمار؛ ذلك لأنه «إذا كان تطوُّر العقلانية الاقتصادية مرتبطاً... بالتقنية وبالقانون العقليَّين؛ فهو مرتبطٌ أيضاً بالقدرات وبالكفاءة التي يتمتّع بها الإنســان ليتبنّى بعض أشــكال السلوك العقلاني العملي»[1]. أمّا العناصر ذاتُ الأهمّية الكبرى في تكوين السلوك فهي ـ وَفْق فيبر ـ القُوى السحريةُ والدينية، ناهيك عن الأفكار الأخلاقية والقِيَمية المتعلّقة بها.

وعلــى الرغم مــن أنّ فيبر يُقــرّ بأنه قــد كان ثمة عناصــرُ أوّليةٌ

1 ـ فيبر، المصدر نفسه، ص12.

bookaltafahom 34.indb 145 1/3/12 8:32 AM

أو جَنينيةٌ للرأسمالية في المجتمعات القديمة (المجتمع البابلي والصيني...) فإنّ هذه العناصر لم تُؤدّ ـ من وجهة نظره ـ إلى العقلنة التي تُميّز تطوُّر الرأسمالية الحديثة في الغرب الذي شهد وحده شكلاً آخرَ من الرأسمالية في الأزمنة الحديثة، هو التنظيمُ العقلاني الرأسمالي الدقيق للعمل الحرّ، والذي لا يمكن اعتبارُه الخاصيةَ الوحيدةَ للرأسمالية الغربية؛ إذ ما من ريبٍ في أنّ ذلك لم يكن مُمكناً من دون عامِلَين آخَرين، هما: فصلُ العمل المنزلي عن المؤسّسة، والمحاسبةُ العقلانية. كما ارتبط بالرأسمالية وَفْق فيبر ما يُسمّى عموماً «التتجير» بمعنى تحويل كل شيءٍ إلى سلعة، وتطوُّرُ المِلكيات القابلة للتبادل، والبورصةُ التي هي «عقلنة المضاربة»، «والمطلوب فهمُه قبل كل شيء هو الرأسمالية الحديثة كما نعرفها منذ نحو ثلاثة قرون»[1].

على أنه ينبغي ألّا يعزُب عنّا أن ماكس فيبر لا ينفكُّ يُشدّد على أنّ الرأسمالية لا تتعلّق بالرغبة في الكسب، ولا بالبحث عن الربح، ولا بالسعي الحثيث وراء جمع المال؛ ذلك أنّ رُوّاد المقاهي، والأطباء، والفنّانين، والجنود، واللصوص، بل حتى العاهرات والإسكافيين والمتسوّلين... كلّ هؤلاء ـ من منظور فيبر ـ قد يكونون مسكُونين بهذه الرغبة الجَمُوح أو بهذا التعطُّش الكبير للكسب، بل إنّ حُمّى الكسب والنهَم إلى الذهب لدى إسكافيٍّ من نابولي قد تكون أكثر قوةً بكثير ممّا هي لدى إنجليزي (بروتستانتي) يعيش في ظروفٍ مشابهة؛ «فالحاجة للكسب غير المحدود لا تنطوي أبداً على مُقوّمات الرأسمالية ولا حتى على رُوحها»[2]. إنّ الرأسمالية كما تبدو تحت قلم فيبر تعني البحث عن الربح، إنما الدائم المتجدّد عبر مؤسّسة عقلانية، بكلمة: إنها البحث

1 ـ جوليان فروند، **سوسيولوجيا ماكس فيبر**، ص 85.

2 ـ ماكس فيبر، **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**، ص 7.

bookaltafahom 34.indb 146 1/3/12 8:32 AM

عن المردودية. والمقصود بأنّ الكسب الرأسمالي هو كسبٌ عقلاني «أنه إذا استَخدم الفعلُ منهجيّاً الموادَّ أو الخدماتِ الشخصيةَ كوسيلةٍ للكسب؛ فإنّ حصيلة المشروع بالأرقام المالية في نهاية مرحلةٍ مُعيّنة منه... ينبغي أن تتجاوز الرأسمال؛ أي قيمةَ وسائل الإنتاج المادّية المُستخدَمة في سبيل الكسب»[1].

ويُلاحِظ فيبر أنّ الإحصاءاتِ المهنيةَ في ألمانيا تُبيّن أنّ كبار رجال الأعمال، وأصحاب الحيازات الرأسمالية، ومُمثّلي الشرائح العليا من اليد العاملة والملاك التِّقْني والتجاري في المؤسّسات الحديثة هم بأغلبيتهم العُظمى من البروتستانت، عِلماً بأنّ ألمانيا بلدٌ تتعايش فيه طوائفُ دينيةٌ متعدّدة. كما أنّ غالبية سكّان المدن الغنيّة والأكثر تطوُّراً من الناحية الاقتصادية قد اعتنقت البروتستانتية منذ القرن السادسَ عشرَ. والسؤال المُلِحُّ في هذا الصدد هو: «لماذا تَظهر أكثرُ المناطق تقدُّماً من الناحية الاقتصادية مُؤهَّلةً... لاحتضان عمليةٍ ثورية في الكنيسة؟»[2]. وفي الجواب على ذلك، يرى فيبر أنّ التحرُّر من الاتجاه الاقتصادي التقليدي هو أحد العوامل التي ينبغي أن تُقوّيَ ميل الإنسان إلى التشكيك أيضاً بالتراث الديني وإلى التمرُّد والخروج على السلطات الكلاسيكية؛ بَيد أنه ينبغي أن يكون منّا على بالٍ ـ كما يشدّد فيبر ـ أنّ الإصلاح الديني لا يعني البتّة إزالة سيطرة الكنيسة على شؤون الحياة بشكلٍ نهائي، وإنما استبدالُ سلطةٍ مُتراخية مُغْرِقةٍ في التراخي بأخرى تكون شاملةً لكلّ ميادين الحياة العامة والخاصة، فارِضةً تنظيماً للسلوكِ شديدَ الوطأة والقساوة، وهذا هو حال الكالفينية. فإنها تُمثّل من منظورِه أكثرَ أشكال الرقابة الكَنَسية على الفرد إزعاجاً بالمطلق،

1 ـ فيبر، المصدر نفسه، ص7.

2 ـ فيبر، المصدر نفسه، ص16.

bookaltafahom 34.indb 147 1/3/12 8:32 AM

ولكـنْ على الرغـم من ذلك فقـد تحمّلـتْ البلـدانُ ذات الاقتصادات الأكثر تطوُّراً ـ وكذلك طبقاتُها الوسـطى الناهضة ـ بصبرٍ وجلَدٍ طُغيانَ الطُّهْريـة المُتزمّتة، بل راحتْ تُدافع عنها وتُناصرُها باستبسـالٍ قلّ أنْ نجد له مُضارِعاً ونظيراً.

ويرُدّ فيبـر أسـباب إمسـاك البروتسـتانت بالنصيـب الأكبر من الرأسـمال وبالحصّـة الكبـرى مـن مراكـز الإدارة في إطـار الحياة الاقتصادية المعاصـرة في الغرب ـ فضـلاً عن الثـروات الكبرى التي ورِثُوها عن آبائهم منذ القرن السادسَ عشرَ ـ إلى عامِلَين رئيسين:

أحدُهما: نـوع التعليم الثانوي؛ إذ إنّ حمَلـة البكالوريا من الطُلّاب البروتسـتانت الذين تخرّجوا من مؤسّسـاتٍ تُحضّر للدراسـات التقنية وللوظائـف الصناعيـة والتجارية، يفُوقـون في أعدادِهـم نُظراءهم من الطلّاب الكاثوليك الذين يُفضّـلون دراسة الآداب القديمة، وهو اختلاف بَـيّـنٌ في ألمانيا الغربية والمجر وغيرهما...

وثانيهما: أنّ الشـبّان الكاثوليك يميلون إلى البقـاء في المُحترَف كَيْمـا يتحوّلوا إلى مركـز «رئيس شـغّيلة»، على حيـن أنّ أقرانهم من البروتسـتانت يَجنحُون إلى العمل في المصانع حيث يُشـكّلون الكادرات العليا من اليد العاملـة ويضطلعون بالمهمّات الإداريـة، ولا جَرَم ـ كما يُومِئ فيبـر ـ «أنّ اختيار المَشـاغل ـ وبالتالي القطـاع الوظيفي ـ أمرٌ تُحـدّده الخصوصياتُ لـدى الطائفة أو الوسـط العائلـي»[1]، بمعنى أنه انعكاسٌ عملـيٌّ للبيئـة الدينية بأخلاقِهـا وقِيمها وفلسـفتها في الحياة ورُوحها في العمل.

1 ـ فيبر، المصدر نفسه، ص18.

bookaltafahom 34.indb 148 1/3/12 8:32 AM

لذلك، فمن المهمّ برأيه معرفةُ ماهية العناصر الخاصة الموجودة لدى هـذه الطوائف التي أثّـرت في ذلك. وفي هذا السـياق يسُـوق فيبر بعـض التحليلات التي حاولت التعبير عن تلـك الفُروق بين هذه الطوائف، لا سـيّما بين الكاثوليكية والبروتسـتانتية: فبعضُ الباحثين يـرى أنّ الكاثوليكية أكثـرُ انفصالاً عـن العالم؛ إذ إنها تُرسّـخ في أذهـان مُعتنِقيها لا مُبالاةً كبـرى إزاء ثروات هـذا العالم، ولا كذلك البروتستانتيةُ، فإنّ البروتسـتانت يرفضون أنماط المثال النُّسُـكي في السـلوك الكاثوليكي. ويـردُّ الكاثوليك برفض «المادّيـة» على اعتبار أنها إحـدى نتائج «عَلْمَنـة» أو «تَزْمِين» كلّ مجـالات الحياة على يد البروتسـتانتية، قَريعتِهـم اللدُود. ومـن الباحثين مَن يذهـب إلى أنّ التعارض الظاهر بين الكاثوليكية والبروتستانتية في علاقاتهما بالحياة الاقتصادية يكمُن فـي أنّ «الكاثوليكـي هو أكثرُ هُدوءًا، [و] مسـكونٌ بعطشٍ قليل جدّاً إلى الكسب، ويُفضّل حياةً آمنةً، ولو مع مدخولٍ ضئيل جدّاً، على حياةِ إثارةٍ ومُجازفةٍ ولـو وَفّرتْ له الثرواتِ والأمجاد. تقول الحكمة الشـعبية بطرافةٍ: «إمّا أنْ تأكل جيداً، أو أن تنام جيداً»، في الحالة الحاضـرة يُفضّل البروتسـتانتي أن يأكل جيّـداً، بينما يفضّل الكاثوليكي أن ينام هادئاً»[1].

وعند فيبر أنّ الكالفينية ـ من بين سـائر الطوائف البروتستانتية ـ هي التـي تُثير روح المشـاريع، بـل إنه ينقل عـن غوتـان (Gothein) وَصْـفه الشـتات الكالفيني (في فرنسـا وهولندا) بأنه «منجم الاقتصاد الرأسـمالي». من هنا، فـلا يعود مُسـتغرَباً أنْ نـرى الكالفينية ـ تلك الطائفة التي خضعت للإصـلاح الديني أكثر من غيرها ـ هي التي أدّت

1 ـ فيبر، المصدر نفسه، ص19.

bookaltafahom 34.indb 149 1/3/12 8:32 AM

ـ دون غيرهـا ـ دوراً مؤثّراً أقوى تأثيـرٍ في تطوير روح الرأسـمالية[1]. وإذا مـا أردنا تحديـد خلفية تلـك الأفكار التي أسـهمت فـي تكوين الـروح الرأسـمالية والبحث عـن منبعها، فإننـا لَنجدُها حسـب فيبر عنـد بعـض الطبقـات البروتسـتانتية ـ الكالفينيـة (Le Calvinisme) والتَّقَويـة (Le Pietisme) والمِيثوديـة (Le Methodisme) والمعمدانيـة (Le Baptisme) ـ التي يتميّز نهجُها الحياتي بتقشُّفٍ يمكن التدليلُ عليه بكلمـة «الطُّهْرية». بَيْدَ أنّ مـا يُهمّه ليس التعاليم النظرية والرسـمية لكُتب اللاهوت الأخلاقي، وإنما الحوافزُ النفسية النابعة من المعتقدات والممارسـات الدينية، ويعدّ فيبر هذه الحوافز نموذجـاً مثاليّاً مترابطاً بقدر الإمكان، «إنه يريد أن يفهم بواسطة هذه اليوتوبيا العقلانية كيف أثّرت هذه الحوافزُ في الواقع لتكوين الروح الرأسمالية»[2]. فما هو هذا النموذجُ المِثالي للذهنية الخاصة بهذه الأوساط؟.

ينطلق اللاهوت الكالفينـي من أنّ اللّه قد قدّر كلّ شـيءٍ منذ بدء الخليقة، فاختَصّ برحمته مَنْ شاء وحجَب نِعمته عمّن شاء؛ فما مِن أحدٍ يسـتطيع جَلْب النعمة لنفسـه ولا أن يَدفعها عنها إذا لـم يكن اللّه قد أراد ذلك. وبما أنه لم يتأتَّ لأحـدٍ أن يطّلع على ما كَتبه اللّه وما قدّره للناس ولا أن يعرف أيُّهم الناجـي المُصطفَى المقدّس ولا أيُّهم الهالِكُ الفاسق المدنَّس، ولمّا كان البروتسـتانتي لا يؤمن بالواسطة فيما بينه وبين اللّه، ويرفض الاعتقاد بأنّ ثمة أسراراً يجب على المرء الإيمانُ بها حتى ينالَ الخـلاص ـ كما يفعل الكاثوليكي ـ ويَعِي أنّ عليه هو بنفسِـه

1 ـ انظر: فيبر، المصدر نفسه، ص20.

2 ـ جوليان فرونـد، **سوسـيولوجيا ماكس فيبـر**، ص100، وفيليب بـرو، **علم الاجتماع السياسي**، ترجمة محمد عرب صاصيلا، المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1998، ص157 ـ 158.

bookaltafahom 34.indb 150 1/3/12 8:32 AM

لا بواسطة غيره أن يفهم كلمة اللّٰه ودليل اصطفائه، حيث إنه وحده وبكفاحه المستمرّ يستطيع أن يصل إلى مرحلة الخلاص[1]؛ فإنّ «هذه الحَيْرة ـ من وجهة نظر فيبر ـ التي لم يستطع المرءُ تحمُّلها دفعتْ به إلى أن يبحث عن علاماتٍ يمكن أن تشير إلى أولئك المختارين»[2]، فلم يجد أمامه من سبيل إلى ذلك إلّا أنْ يعمل بجدٍّ ونشاطٍ وحيوية ما دام العمل يزيد في تمجيد اللّٰه.

ينطلق اللاهوت الكالفيني من أنّ اللّٰه قد قدّر كلّ شيءٍ منذ بدء الخليقة، فاختَصّ برحمته مَنْ شاء وحجَب نِعمته عمّن شاء

إنّ التعاليم الإلهية الكالفينية تحضُّ المرء على أن يتحكّم في نَزَواته وشهواته، وأن يَضبِط مُيوله وغرائزه، وتحُثُّه على الزهد والتقشُّف في هذه الحياة الدنيا، لكنْ ليس الزهد والتقشُّف السلبيَّيْن، بمعنى اعتزال العالم، والفِرار من الحياة، والاعتكاف في صومعةٍ والتفرُّغ لعبادة اللّٰه كما يفعل التنابلُ الكُسالى الخاملون، وإنما التنسُّك في هذا العالم والخوضُ في معترك الحياة، والعملُ الدؤوب وبمثابرة، والنجاحُ في الحياة المهنية، وتحصيلُ الثروة ومراكمة المال... إلخ، وكلُّ ذلك استجابة لنداءٍ ربّاني داخلي (دعوة = Calling) يشعر المرء تُجاهه بنوعٍ من الواجب الأخلاقي. حتى إنّ بعض الكُتّاب الإنجليز أطلق على المهاجرين البروتستانت اسم «رُوّاد العمل المُتقَن»[3]؛ لنشاطِهم وحيويتِهم وجِدّيتهم في العمل. يقول كالفن في هذا الصدد

1ـ محمد أحمد بيومي، **علم الاجتماع الديني ومشكلات العالم الإسلامي**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1997، ص151 ـ 183.

2ـ إبراهيم الحيدري، جدلية الحوار حول أطروحة ماكس فيبر «الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية»، ص162.

3ـ ماكس فيبر، **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**، ص168، وانظر في هذا الشأن: رضوان السيد، **سياسيات الإسلام المعاصر**، ص341.

bookaltafahom 34.indb 151 1/3/12 8:32 AM

مُخاطِباً أتباعَـهُ: «وعندما يُرِيكُم اللّهُ طريقاً خاليـاً من الآلام لِخلاص أرواحكم... وفي طريقةٍ قانونيةٍ تستطيعون بموجبها الحصول على أرباح... فإنّ هذا لَبُرهانٌ لكـم... ومن أجل اللّه ينبغـي أن تعملوا حتى تُصبحوا أغنياء»[1]. وبذلك غدت الثروة ـ وَفْق تعاليم اللاهوت الكالفيني ـ مؤشّراً للمرء على اصطفاء اللّه إياه، وأنه قد يكون من فئة المُجتبَين والناجين.

وما من مِريةٍ في أنّ رَفْض البروتستانتي الإيمانَ بالأسرار والوسائط بينه وبين اللّه بُغية الوصول إلى الخلاص يقود إلى اسـتبعاد كل سِحر، ويؤدّي بفضـل العقلنة المُتزايدة إلى إزالة وَهْـم العالم. أمّا كيف يعلم المرء أنه ينتمي إلى فئة المُصطفَين الأخيار وما هي مَخايلُه ودلائلُه على ذلك، فإنه يكتشف ذلك ـ وَفْق اللاهوت البروتستانتي الكالفيني بصفةٍ خاصة ـ في حياةٍ شـخصية مُطيعةٍ بكل دقّة لوصايـا اللّه، وفي الفعالية الاجتماعية المُطابِقة لمشيئة اللّه، وتشتمل هذه الفعاليةُ الاجتماعية على نجاحه في نشـاطه المهني، بحيث يغدو العملُ الفعّـال تعبيراً عن مجد اللّه وأمَارةً من أمَارات الاصطفاء القائم على الحياة المُعاشـة بتقشُّف. ولا نِزاع في أنّ هذا التعبير عن ثقة اللّه بواسطة النجاحات التي تُكسبها للناس يُشكّل من الناحية النفسية وسيلةً لِدفع قلق التفكير في الخلاص والاهتجاس بِهَـمّ النجاة، «بمعنًى آخرَ، يُرسّـخ النجاحُ في العمل الدعوةَ الشـخصية، ويُفسّـر كتبريرٍ للاصطفـاء؛ لأنّ المصطفى وحـده يَـنعم حقّاً بالإيمان الفعّال (fidex efficax). وعليه، لا يمكن للمرء أن يشـتريَ خلاصه بأعمالٍ خيّرة أو بأسرار، إنما يمتلك اليقين بذلك بفضل فعاليّة الإيمان التي يُؤكّدُها نجاحُ أعماله المُجدّة»[2].

1 ـ عن إبراهيم الحيدري، جدلية الحوار حول أطروحة ماكس فيبر «الأخلاق البروتسـتانتية وروح الرأسمالية»، ص 163.

2 ـ جوليان فروند، **سوسيولوجيا ماكس فيبر**، ص 101 ـ 102.

bookaltafahom 34.indb 152 1/3/12 8:32 AM

ومن ثَـمّ فإن النجاح الاجتماعي يزيد السـلوك الشـخصي صرامةً وتشـدُّداً، ويجعل التقشُّـفَ هو النهجَ الذي يضمن حالـة النعمة، فليس طريقُ اختبار الإيمان هو الزهدَ فـي الدنيا والاعتكافَ في صومعةٍ بعيدةٍ مـن العالم والاسـتغراقَ فـي التأمل، وإنما يكـون ذلك باختيـار مهنةٍ والنجاح فيها، مع ما يتطلّبـه ذلك من مُحافظةٍ على الوقت واسـتغلالٍ لكل لحظةٍ فيه؛ إذ إنّ الكالفينية تُوجِّه المرء إلى أنْ يُحافظ على وقته، وألّا يهدُر منه ولو دقيقةً واحدة؛ ذلك لأنّ العمل ـ كما سـبق أنْ ألمَعْنا في المنظور الكالفيني ـ يُعبّر عن تمجيد اللّه. «فالعملُ هو بشكلٍ خاص الدواءُ النوعيُّ الذي ينبغي استخدامُه من باب الوقاية ضدّ كلّ الإغواءات التي جَمعتْها الطُّهْريةُ في عبارة: الحياة الفاسـدة (Unclean life)»[1]، بل إنه «يُشـكّل هدف الحياة ذاته، كمـا ثبّته اللّه»[2]، أكثـر من ذلك، إن النُّسُكية البروتسـتانتية تنظر إلى العمل على أنه «إلهامٌ ربّاني» أو نداءٌ ربّاني يمثّل «الوسيلة الفُضلى ـ إن لم تكن الوحيدة ـ للتأكُّد من النعمة والخلاص»[3]. وكُلّما عمِل المرءُ بنشـاطٍ أكثرَ وحيويةٍ أكبر كان ذلك له من علامات رِضى اللّه عنه. كما عليه في الآن عينِه ألّا يقتطع من المال الذي يَجنيه من عمله الدؤوب إلا ما هو ضروريٌّ لأنْ يعيش عِيشةً راضيةً قنُوعـاً تحترم شـريعة اللّه وحُكمه وتقديـره. اِقرأْ إنْ شـئتَ قول بعض الطُّهريّين البروتسـتانت: «إننا لا نعمل فقط لكي نعيش، بل إننا نعيش لأجل حُبّ العمل»[4]، أو اقرأ قـولَ آخر: إنّ «بليداً أو مُتكاسـلاً لا يمكن أن يكون مسـيحيّاً ولا أنْ يحظـى بالخلاص»[5]، أو قولَ ثالـثٍ: «إنّ مِن

1 ـ ماكس فيبر، **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**، ص 135.
2 ـ فيبر، المصدر نفسه، ص 136.
3 ـ فيبر، المصدر نفسه، ص 146.
4 ـ فيبر، المصدر نفسه، ص 154.
5 ـ فيبر، المصدر نفسه، ص 154.

bookaltafahom 34.indb 153 1/3/12 8:32 AM

شأن الثراء أن يُعفيَـك من بعض الأعمال الفذّة... غير أنه لا يُعفيك من العمل والخدمة مثلَ أفقر الناس»[1]!. بل الطريف المُستظرَف أنّ سياسة التقشُّف لدى الطُّهري تطالُ ـ أو تكاد ـ الإنفاق على النفس والأهلِ والعِيال، فعلى المرء أن يكون حريصاً في ذلك؛ إذ «إنّ إنفاق أي قطعة نُقودٍ على نفسك وأطفالك وأصدقائك إنما يتمُّ بمشيئة الله وفي سبيل إرضائه، لكنْ لا بدّ أن يكون الإنسان حريصاً على ممتلكاته، وإلّا فإنّ المتطلّباتِ المادّيةَ لا تترُك للربّ شيئاً»[2]!.

من هنا، فلا بِدْعَ أن تكون مثلُ هذه الروح ـ التي أثمرت تلك الإنتاجية الكبرى في العمل بعيداً من البَذخ والفَخفخة والترَف ـ قد ولّدت نمطاً معيشيّاً أثّر بصورةٍ مباشرة في روح الرأسمالية بإيجاد مناخٍ مُؤاتٍ لنموّها وتوفير بيئةٍ مُلائمة لتطوُّرها.

ولهذا كُلّه يَنزِعُ ماكس فيبر إلى أنه قد كان للسلوك التقشُّفي دورٌ هام في صياغةِ عقلانيةٍ للوجود بأَسْرِه منسوبةٍ إلى مشيئة الله، كما أدّى الضبطُ المستمرُّ للنفس بصورةٍ منهجية إلى عقلنة السلوك الفردي؛ وهكذا غدا الطُّهريُّ قادراً على الإسهام في تنظيم المؤسّسات وبالتالي عقلنة الاقتصاد. لكنْ أَثَمَّةَ تناقضٌ بين ازدياد الثروة الناجم عن النجاح المهني وبين سياسة التقشُّف التي يتبعُها هذا الطراز من البروتستانت؟ والجواب ـ كما تجزم التعاليم البروتستانتية الكالفينية خصوصاً ـ قطعاً لا؛ لأنّ ما هو مذمومٌ في الواقع ليس اكتساب الثروة ولا جَمْع أكبر قدرٍ ممكن من المال، وإنما هو الإخلادُ إلى الثراء والاستنامةُ إلى الدَّعَة والراحة في التملُّك والتمتُّع بالأموال مع ما يترتّب على ذلك من نتائجَ

1 ـ فيبر، المصدر نفسه، ص154.
2 ـ فيبر، المصدر نفسه، ص163.

bookaltafahom 34.indb 154 1/3/12 8:32 AM

سلبيةٍ، كالبطالة وإغراءات الشهوة... إلخ. ناهيك عن أن الثروة بالنسبة إلى البروتستانتي ما هي إلا «كمِعطفٍ خفيف يمكن خَلْعُه في أية لحظة»[1]، كما يقول باكستر (Baxter)، أحد كبار مُنظّري الفكر الطُّهري وذو الحضور الملحوظ في كتاب فيبر.

ولا يفوت فيبر التشديدُ على أنّه في دراسته هذه لم يَرْمِ إلى استبدال التفسير المادّي للرأسمالية الحديثة ـ أو للحضارة والتاريخ عموماً ـ بآخرَ روحانيٍّ لا يقلّ عنه آحاديةً. وفي هذا السياق، يتساءل بصيغة الإنكار: «هل من الضروري الاحتجاجُ على أنّ هدفنا ليس أبداً استبدال تحليلٍ سببي «مادّي» حصراً بتأويلٍ رُوحاني للحضارة والتاريخ، تأويل لن يكون إلا كغيره آحادي الجانب؟!.. فإنّ كُلًّا منهما [التأويلين] يُسيء إلى الحقيقة التاريخية»[2]. كما ينبغي عدمُ إعطاء العلاقة السببية التي يقول بها فيبر بين البروتستانتية والرأسمالية معنى علاقةٍ آلية؛ ذلك لأنه عندما يتحدّث عن الأخلاق البروتستانتية (بشقّها الكالفيني على وجه الخصوص) ودورها في تطوُّر الروح الرأسمالية؛ لا يقصد بذلك اعتبار تلك الأخلاق هي سببَ الرأسمالية أو عِلّتَها الوحيدة، وإنما بحسبانها أحدَ العناصر الأساسية للروح الرأسمالية الحديثة القائمة على تنظيمٍ عقلاني للأعمال، يقول فيبر في هذا الصدد: «لقد حاولنا ببساطةٍ أنْ نُحدّد الحِصّة التي تعُود إلى العوامل الدينية، مِن بين العوامل العديدة التاريخية المعقّدة التي أسهمت في تطوُّر حضارتنا الحديثة الموجَّهة تخصيصاً نحو الحياة الدنيا»[3].

1 ـ فيبر، المصدر نفسه، 148.

2 ـ فيبر، **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**، ص149.

3 ـ ماكس فيبر، **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**، ص58، وانظر: حيدر إبراهيم علي، «الأسس الاجتماعية للظاهرة الدينية: ملاحظات في علم الاجتماع الديني»، في: =

bookaltafahom 34.indb 155 1/3/12 8:32 AM

ما كان تصوُّر ماكس فيبر للعلاقة بين الإسلام والرأسمالية؟

يبدأ صاحب **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية** دراسته بالسؤال: في أي سياقٍ من الظروف برزتْ ظاهراتٌ ثقافيةٌ في الحضارة الغربية وحدها دون سواها، ظاهراتٌ ارتدَتْ مدلولاً وقيمةً كونية؟ ويُجيب قاطِعاً بأنه لا وجود لعِلمٍ يُعترف بـ«قيمة» تطوُّره إلا ذاك الذي في الغرب، على الرغم من إقراره بأنه قد أتى حينٌ من الدهر ظهرتْ فيه خارج أوروبا معارفُ تجريبيةٌ، وأفكارٌ حول الكون والحياة، وحِكمٌ فلسفية ولاهوتيةٌ عميقة، لا سيّما في الهند ومصر وبابل... إلخ، بَيد أنه «باستثناء الغرب ما مِن حضارةٍ تمتلك كيمياء عقلانية»[1]. ومع أنه لا يُنكر أنّ الحضاراتِ والسياسات الآسيويةَ قد عرفتْ البحث العميق في التاريخ، فإنّ كلّ هذه السياسات كانت ـ بنظره ـ تفتقر إلى طريقةٍ منهجية يمكن مقارنتها بأرسطو، كما كانت تعوزهم المفاهيم العقلانية بصورة خاصة. ويَقطع فيبر بأنّ الأشكال الفكرية الدقيقة في منهجيتها ـ الخاصةَ بالقانون الروماني وخلَفِه؛ أي: القانون الغربي ـ هي أشكالٌ غير موجودة مطلقاً إلّا في أوروبا. فالغربُ وحده برأيه هو الذي يعرف صرحاً قانونيّاً سامقاً على غِرار الحقّ الكنَسي. ومثلُ ذلك الفنون، فربما كانت شعوبٌ أخرى تتمتّع بحسٍّ موسيقيّ ما، إلا أنّ الموسيقى المتكاملةَ عقلانيّاً، المتناسقةَ من الناحية الفنّية في إطار وحدةٍ متلائمة، لم توجد ـ من وجهة نظره ـ إلا في الغرب. بل إنّ عقلنة الفنّ بحسب فيبر قد أصبحت أمراً كلاسيكيّاً بالنسبة إلى الأوروبيين، وهذا يصحّ على الطباعة والصحافة والدوريات العلمية... إلخ. ولئن وُجد «في الصين

= **الدين في المجتمع العربي**، مجموعة من الباحثين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1990، ص61.

1 ـ فيبر، **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**، ص5.

bookaltafahom 34.indb 156 1/3/12 8:32 AM

وفي الإسلام كلُّ أنواع مؤسّسات التعليم العالي التي لا مثيل لها شكليّاً في جامعاتنا... غير أنّ بحثاً علميّاً عقلانيّاً منهجيّاً ومتخصّصاً، وهيئةً من المتخصّصين المجرّبين، لا وجود لهما في أي مكانٍ آخرَ غيرِ أوروبا»[1]. كما ينطبق ذلك على الموظّف المتخصّص الذي يُعَدّ حجر الزاوية في الدولة الغربية الحديثة وفي الاقتصاد الأوروبي الحديث. ولا مِراء برأيه في أنّ الوجود الاجتماعي برُمّته وبأشكاله السياسية والاقتصادية والتقنية مرتبطٌ بالضرورة وبشكلٍ كُلّي بتنظيم الموظّفين المُتخصّصين والأكْفاء. أمّا الدولة ـ بالنظر إليها على أنها «مؤسّسة سياسية لها دستورٌ مكتوب، ولها قانونٌ قائم عقليّاً، وإدارةٌ موجَّهة على أساس قواعدَ عقلانيةٍ أو قوانين، ولها مُوظّفون ذوُو كفاءة ـ فليست معروفة على هذه الصورة إلا في الغرب»[2]. من كل ما تقدّم يمكن استظهار أنّ ثمة شوفينيةً غلّابة تطغى على تفكير ماكس فيبر، فهو رهينُ مَحبِسها، وتظهر على جهة الخصوص في جُنُوحِه الجَمُوح إلى القول بِفرادة الحضارة الغربية ومَركزيّتها وتقدُّمِها على سائر الحضارات الكونية الأخرى، بما في ذلك الحضارة الإسلامية.

إن الغرب وحده ـ برأي فيبر ـ هو الذي يعرف صرحاً قانونيّاً سامقاً على غِرار الحقّ الكنَسي. ومثلُ ذلك الفنون، فربما كانت شعوبٌ أخرى تتمتّع بحسٍّ موسيقيّ ما.

ففيما يتعلّق بتصوُّره للعلاقة بين الإسلام والرأسمالية، يَنزِعُ فيبر إلى أنّ الطبيعة الوراثية للمؤسّسات السياسية الإسلامية قد حالتْ ـ إلى جانب عوامل أخرى ـ دون ظُهور المقدّمات الضرورية للرأسمالية في عالم الإسلام، وبصورةٍ خاصة: القانون العقلاني، والسوق الحُرّة، والاقتصاد

1 ـ فيبر، المصدر نفسه، ص 7.
2 ـ فيبر، المصدر نفسه، ص 7.

bookaltafahom 34.indb 157 1/3/12 8:32 AM

النقدي، والطبقة البرجوازية والمُدن المستقلّة. ثم إنّ الإسلام ـ عنده ـ نقيضٌ من جوانبَ عديدةٍ للمذهب الطُّهري، بسببٍ من أنه يتبنّى اتّجاهاً شهوانيّاً خالصاً، خصوصاً تجاه النساء والمِلكية والكماليات، ولذا فإنّ من غير الممكن أن تبرُز في الإسلام أخلاقٌ زُهدية للسيطرة على العالم.

ويذهب فيبر إلى أنه في ظِلّ نظام الإقطاع الوَقْفي والبيروقراطية الإرثية اللذين كانت تتميزّ بهما الدولةُ الإسلامية عبر تاريخها ـ سيّما العباسية والمملوكية والعثمانية ـ لم يكن بالإمكان ظهورُ متطلّبات العقلانية المُمهِّدة للرأسمالية، كما أنّ الظروف العسكرية والاقتصادية في المجتمع الإسلامي ما كانت مُلائِمةً لتطوُّر الرأسمالية.

وهكذا، فإنّ التصوُّر العامّ الذي انتهى إليه فيبر في دراسته للإسلام هو أنّ المجتمع الإسلامي مجتمعٌ يتميّز بعِلاقات سياسيةٍ واقتصاديةٍ وقانونية غير مستقرّة، ويطبعها طابعُ الاستبداد واللاعقلانية، حسب المفهوم الفيبري للكلمة. وتشوُّفاً إلى إبراز فضل الحضارة الغربية على حضارات الشرق، يدأب ماكس فيبر ـ كما يَلْحَظ براين تيرنر في كتابه **علم الاجتماع والإسلام** ـ على المُقابلة بين الإقطاعية الأوروبية التي كانت تحمي حقّ المِلكية وبين الإقطاع الوَقْفي والنزعة الإرثية التعسُّفية في الشرق بعامة، وفي المجتمع الإسلامي بشكلٍ خاص، «إنّ مِحور تصوُّر فيبر للمجتمع الإسلامي يتمثّل في المُقابلة بين الطابع العقلاني والمنظَّم للمجتمع الغربي خاصةً في ميدان القانون والعلوم والصناعة، وبين الأوضاع التعسُّفية وعدم الاستقرار السياسي والاقتصادي في الحضارات الشرقية وبالذات في الإسلام»[1].

1 ـ براين تيرنر، **علم الاجتماع والإسلام**، ص31، ولمزيدٍ من التفصيل انظر: المصدر نفسه، ص15، و28 ـ 31، رضوان السيد، **سياسيات الإسلام المعاصر**، ص350.

bookaltafahom 34.indb 158 1/3/12 8:32 AM

بَيد أنّ فيبـــر لم يكن الوحيـــد ولا مُحْرِز قصَب السَّـــبْـق في تصوُّره هذا للإســـلام؛ فقد كانت وِجهةُ النظـــر هذه هي الســـائدةَ لدى مُنظّري الفكر السياسي والفلاســـفة والاقتصاديّين الكلاسيكيّين في القرن التاسعَ عشرَ فيما له مَســـاسٌ بالفُروقات بين المجتمعات الشـــرقية والغربية من حيث أنماطُ حياتها، ونُظُمُها السياســـية، وطرائقُها في التفكير والسلوك، إذ إنّ الفلاسفة الشـــموليّين والاقتصاديّين التقليديّين ـ أمثال آدم سميث في كتابه **ثـــورة الأمم**، وجيمس ميل في كتابـــه **تاريخ الهند البريطانية**، وجون ستيوارت ميل في كتابه **أُســـس الاقتصاد السياسي** ـ كانوا يَنزِعُون إلى أنّ ثمة فُروقاً كبرى لا يُســـتطاع طمسُـــها بين أوروبا الإقطاعية وبين الاســـتبداد الشـــرقي الذي مهّد لِظُهور ظروفٍ اقتصادية جامـــدةٍ، مَـثّـلتْ حَوائلَ موضوعيةً دُون نُموّ الرأســـمالية. ثم جاء كارل ماركس ـ وهو الذي أفاد أيَّما إفادةٍ مـــن الفكر الاقتصادي البريطانـــي ـ لِـيَـنْظِم مُتناثر هذه الأفكار ولِيُبلورها مِن ثَمّ تحت مفهوم «أســـلوب الإنتاج الآســـيوي»، الذي يُماثل من الناحية التصوُّرية مفهوم «السيطرة الإرثية» لدى ماكس فيبر[1].

لقد أكّد فيبر بأطروحته هذه احترامَه لأهمّيـــة الدين كقوةٍ تكامُلية في المجتمع ولِمكانة المعتقدات والممارســـات الدينية في مسائل التغيُّر الاجتماعـــي. ثم إن كتاباتِـــه مليئةٌ بإلماعـــاتٍ بارزة إلـــى وظيفة الدين المعياريـــة ودوره في الاســـتقرار الاجتماعـــي وفي الدفع نحـــو الحيوية العملية وعقلنة السلوك، كما هو حال الأخلاق البروتستانتية (الكالفينية على وجه الخصـــوص). وجُلُّ ما فعله فيبر في هـــذا المجال هو أنه أخذ مســـألة الرأســـمالية من المجال الاقتصادي ووضَعها فـــي مجال الفكر الدينـــي، معتبراً أنّ الدين مـــن أقوى حوافز الفعـــل الاجتماعي ولا غِنًى

1 ـ انظر: براين تيرنر، **علم الاجتماع والإسلام**، ص 31 ـ 35.

bookaltafahom 34.indb 159 1/3/12 8:32 AM

عنه من أجل فهم المجتمع، والسلوك الاجتماعي، ومن أجل فهم التاريخ وحركتِه. وجُملة ما أراد قوله هو أنّ الروح الرأسمالية الحديثة قد نشأت من خلال العقيدة البروتستانتية وأخلاقيّاتها، بل إنّه ينزِعُ إلى أنّ روح الرأسمالية «هي نفسُها روحُ العقيدة البروتستانتية بما تنطوي عليه من أنماطٍ سلوكية أخلاقية وعملية. ولقد وُجدتْ الأخلاقيات الاقتصادية في نطاق المذهب البروتستانتي؛ فروحُ الرأسمالية ـ بناءً على ذلك ـ ظهرت قبل أنْ تَظهر الرأسمالية ذاتُها»[1].

وما من نِزاعٍ في أنه قد كان لأفكار فيبر ـ لا سيّما دراستُه هذه ـ رَجْعٌ بعيدٌ وصدًى واسعٌ لدى الباحثين في مجال السوسيولوجيا الدينية كما في الاقتصاد والتاريخ ومقارنة الأديان وغيرها، إنْ مُناوَءةً ونقداً وتفنيداً، وإنْ مُناصَرةً ومُنافحةً عن أطروحته وتأييداً. أمّا النقود التي وُجّهت إلى نظريته فمن أبرزها ما يلي:

1 ـ أخذ المؤرّخ جيوفري ألتون على أطروحة فيبر نُزوعها البيّن إلى التعميم الواسع الذي لا تؤيّده الوقائع ولا التطوُّرات الاقتصادية؛ إذ إنّ ثمة نواحيَ كاثوليكية السكّان في إيطاليا وفرنسا وسويسرا وهولندا ظهرت فيها رُوح الرأسمالية بالمفهوم الفيبري قبل النواحي البروتستانتية المُجاورة. ولذلك فقد كان على المؤرّخ فيبر ألّا يقع ضحية ميل السوسيولوجيين إلى التعميم استناداً إلى عيّناتٍ قليلة أو غير مُمثِّلة[2].

2 ـ اتّهم بعضُ الباحثين ماكس فيبر بأنه انطلق من أنّ الذهنية البروتستانتية هي المحرّكُ الأساسُ لِنُموّ النظام الرأسمالي، ذاهِلاً

1 ـ عبدالباقي، **علم الاجتماع الديني**، ص108، وانظر: المصدر نفسه، ص105 ـ 109.
2 ـ رضوان السيد، **سياسيات الإسلام المعاصر**، ص343.

bookaltafahom 34.indb 160 1/3/12 8:32 AM

عن أنّ ثمة عواملَ أخرى ساعدتْ إن لم تكن قد حرّكت عجلة نُموّ الرأسمالية، من مثل: انفصال العمل اليدوي عن العمل الحِرفي، وتدفُّق المعادن والموادّ الأولية والنقود، وتطوُّر النظام المَصرِفي وما رافق ذلك من تطوُّراتٍ علميةٍ وثقافية وتكنولوجية... إلخ.

3 ـ رأى بعضهم أنّ الذهنية الاقتصادية، التي عَدّها فيبر إحدى خواصّ الأخلاق الكالفينية وأنّ ظُهورها كان سابقاً على نشوء أسلوب الإنتاج الرأسمالي، إنما كانت في الواقع نظرةً اقتصاديةً/اجتماعيةً لِطبقة العمّال اليدويّين الذين كانوا يعملون في المدن إبّان الفترة التي سبقتْ تطوُّر الرأسمالية في الصناعة. بَيد أنّ هذه الذهنية الاقتصادية كانت أقدمَ من الكالفينية، وتمثّلتْ بروح التمرُّد لدى الحِرفيّين في وجه استغلال الإقطاع والكنيسة والعمل الشاقّ... إلخ، ولا يمكن بنظر هؤلاء الباحثين البحثُ عن تفسيراتٍ لهذه الذهنية أو هذه الروح المتمرّدة لدى العمّال إلّا في إطار العلاقات الاقتصادية/الاجتماعية، لا في ذهنياتٍ دينية أو خُلقية.

إن روح العقيدة الرأسمالية هي نفسها روحُ العقيدة البروتستانتية بما تنطوي عليه من أنماطِ سلوكية أخلاقية وعملية

4 ـ ذهب بعضُ الدارسين إلى أنّ ماكس فيبر في **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية** بَدا متأثّراً في تفسيره للتطوُّر الاقتصادي بالمثالية[1] الموضوعية التي تعُود في جذورها إلى هيغل،

1 ـ لم يكن ماكس فيبر يريد لأطروحته حول **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية** أن تتبدّى وكأنها تعبيرٌ عن النزعة المثالية، وقد ألمعَ بعضُ الدارسين إلى أنه كان مستاءً من التفسيرات المثالية لقضية الأخلاق البروتستانتية، لكن على الرغم من ذلك، فقد حاول بعضُ معاصريه (هانز ديلبرك) أن يستفيد من نظرية فيبر في علاقة الكالفيني بالرأسمالي، ويُقدّمها بحسبانها نزعةً مثاليةً مضادّة للماركسية، فاعترض فيبر على =

bookaltafahom 34.indb 161 1/3/12 8:32 AM

الذي يرى أنّ لكلّ حقبةٍ تاريخيةٍ رُوحَها الخاصَّ بها، والذي يشتمل على مجموعةٍ من النظرات النفسية. فما فعله فيبر برأي هؤلاء ليس أكثر من أنه جعل الرأسـمالية وليدة تلك الثورة؛ في الذهنيـة الاقتصادية التي نجمت عن حركة الإصلاح الديني البروتستانتي.

5 ـ نَبّه بعضُهم على أنّ الناس ليسوا بحاجة إلى نداءٍ سماوي دِيني كَيْما يندفعوا إلى السـعي وراء المال ومُراكمته وتحصيل الثروة، إذ إن ذلك مركُـوزٌ في طبائعهم[1]. على أنّه ليس يعسُـر دَفْعُ هـذا الاعتراض؛ فإنّ ماكس فيبر نفسـه قد أكد في أكثرَ مِن موضعٍ فـي كتابه **الأخلاق البروتسانتية وروح الرأسمالية**[2] أنْ ليست القضيـةُ قضية تعطُّشٍ للثروة والكسب أو لُهاثٍ وراء جمع المال.

6 ـ لعلّ أشـد ما يُؤخذ علـى ماكس فيبـر قولُه بفـرادة العقلانية الأوروبية وتَميُّزِ الحضارة الغربية عن غيرهـا وتعصُّبه لها، وذَهابُه إلى أنه ثمة «في الغرب ـ وفي الغـرب وحده ـ بعضُ أنماطٍ محدَّدةٍ جدّاً من العقلنة»[3]، وإيلاؤُه للوراثـة البيولوجية الدورَ الكبيـر في هذا المجال، وكأني به يريد أن يقول: إنّ العقلانية والنُّبُوغ والعبقرية وما يرتبط بها من ثمارٍ ـ لا سـيما من ناحية السـلوك الاقتصادي المنظَّم على أساسٍ عقلاني ـ هي في جِبلّة الإنسان الغربي يَرثُها الأبناءُ عن الآباء جينيّاً[4]!!.

= ذلك بجِدّة، قائلًا: «يجب أن أعترض على هذا، فأنا أكثرُ ميلاً للنزعة المادّية أكثر ممّا يظنُّ ديلبرك». عن: براين تيرنر، **علم الاجتماع والإسلام**، ص25.

1 ـ إبراهيـم الحيدري، «جدلية الحوار حول أطروحة ماكس فيبر «**الأخلاق البروتسـتانتية وروح الرأسمالية**»، ص165 ـ 167.

2 ـ ماكس فيبر، **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**، ص7 وص31.

3 ـ ماكس فيبر، **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**، ص14.

4 ـ سـبق التنبيه إلى كثيرٍ من النصـوص الفيبرية التي تدعم هذا التصـوّر، وانظر لمزيدٍ من التفصيل في هذا الشأن: ماكس فيبر، **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**، ص5 ـ 14.

bookaltafahom 34.indb 162 1/3/12 8:32 AM

والملحــوظ أنّ أطروحة فيبر هــذه قد حَظيتْ ببعــض الترحيب من جانب علماء اللاهوت ومقارنة الأديان والسوسيولوجيين، على الرغم من أنّ اللاهوتيّين الكاثوليك رأوا في قولِه بسُكونية الكاثوليكية وانفصالِها عن العالم وجُمودِها في مجال روح العمل والرأســمالية اتّهاماً بتخلُّفها؛ بينما رأت الكنائسُ البروتستانتية الكبرى أنّ في إبراز فيبر لدور كنائس التقَويّين والطُّهْريّين والنُّسُكيّين على حسابها ظُلماً تاريخيّاً لها، وطَمْساً جائراً لِدورها في الإصلاح الدينــي وفي ظهور الدولة القومية الحديثة. على حين أنّ ردّة فِعل المؤرّخين الاجتماعيّين كانت ســلبيةً بصورة عامة، مع أن كثيراً من سوء الفهم ـ كما اعترف فيبر نفسُه ـ قد أحاط بدراسته هذه، ومردُّ ذلك إلى الخلل الذي اعتور طرائقــه في التعبير، والتدليل القاصر الذي اتخذ شكل البرنامج لا الدراسة التحليلية[1].

علــى أي حال، وأيّــاً ما تكن النقــود التي وُجّهت إلــى ماكس فيبر في ربطِه بيــن **الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية**، فليس من أحدٍ يُماري في أنه رجُلٌ من مَعارف التاريخ قد حقّق فتحاً عظيماً في تسليطِه الضوءَ على أحد أهم العناصر والعِلل والأســرار التي كانت وراء نهضة الغرب، وفي اكتشــافِه تلك الرابطــةَ القوية بين الأخــلاق والعمل، بين النظــري والتطبيقي، بين الروحــي والمادّي؛ إذ لاحظ أنــه أنّى وُجدت البروتستانتية (في شِــقّها الكالفيني بخاصة) ـ وهي التي تُقدّس العمل، وتُشــجّع روح المبــادرة، وتحُثّ أشــياعها على مُراكمة الأمــوال وتجميع الثــروات... وكل ذلك في ســبيل إرضاء الــربّ واســتدرار عطفِه وبلوغ الخلاص ـ انبعثتْ الرأسماليةُ ونشطت.

1 ـ رضوان الســيد، **سياســيات الإســلام المعاصر**، ص 341 ـ 343، وبرايــن تيرنر، **علم الاجتماع والإسلام**، ص 22 ـ 23.

bookaltafahom 34.indb 163 1/3/12 8:32 AM